النهار – ٣٠/١٢/٢٠٠٣ ص ٢٣

في هناءة الحياتين

بقلم شوقي قازان

ميشال شيحا اسم توقّفت رحلة عمره الزمانية والمكانية الاولى على حائط الايام والمسافات منذ قرابة نصف قرن، لتبدأ رحلة عمره الثانية خارج جاذبية الايام والمسافات، متخطية به حدود الازمنة والامكنة...

كان ذلك بعدما دمغ العصر باسمه وهو حيّ. فقال معاصروه: عصر ميشال شيحا. وبعدما دمغ توالي العصور بذلك الاسم وهو ميت. فقال من ورثوه: عصور ميشال شيحا.

حياة العباقرة، لو تعلمون، حكاية كما الاسطورة. وما يلي حياتهم حكاية كما الاسطورة، وتتوالى مسيرة الحياتين فيطيب السرد، وتطيب الغرابات على وقع خطى الخرافة عندما تحفرها الازاميل في اجساد الكلمات.

تُرى هل بين ميشال شيحا وبيننا ما بين عظماء الكلمة وكرور الايام والليالي تُسدل الستائر وتُصفّى الحسابات؟! أم يبقى في عالم العبور مكان للدهشة وملاذ للوفاء؟

غَمَرَ طفولته اليُسرُ واليسار فما ضاق في صدره نفس العيش الرخيّ، ولم تكن قراءاته الاولى في حكايا للاطفال، بل في اخبار عن الكبار، فاعتاد التطلّع منذ صغره الى فوق.

وجذبته لغة رونسار، لغة الاناقة الباريسية، مقدراً محبة موريس بارس لوطنه. ولم تتنكّر لجناحيه، لغة الضاد الفسيحة الأفنان، فوّصف باكراً برؤيوية التفكير، ومنطقيّ القول.

هاجر الى مصر بعد اندلاع الحرب العالمية الاولى 1914 – وهو عند العشرين او دونها – والتحق فيها بإحدى كليات الحقوق، ليعود بعد حلول السلام 1918 الى وطنه لبنان، دارساً عن قرب مشكلاته السياسية والقومية والحضارية، وتلاعب الحكام بمصيره، ملتحفين بغطاء من الانتداب الفرنسي. واجتاح الشعر والنثر بديباجة ابجديته، مسجّلاً وقوفاً مميزاً مع الاول، وارتياحاً منبسطاً مع الثاني، وهو في إثبات حبه الواعي لوطنه، الشمولي الرؤيا والمدى والهدف، يحرّك الهدى في عيون مواطنيه وضمائرهم، قائلاً لهم: "لا معنى لوجودي بدونكم ايها المواطنون، إن الله وهبني قلباً كبيراً يتسع لجميع من أحب!".

صحيح أنه ترك مطبوعة شعرية فرنسية البوح، لكن الصحيح ايضاً أنه ادرك ككبار الموهوبين ان شوطه الذي خَلق له هو في النثر لا في الشعر، فاكتفى بالمنثور وانصرف عن المنظوم انصراف ابن المقفع في القدامى، وهو القائل: "ما يأتيني من الشعر لا أرتضيه، والذي أرتضيه، لا يأتيني"، وانصراف مارون عبود عنه في المحدَثين غير هيّاب لوم لائم ولا نقد ظالم، وأمثال هذين القطبين ممن أراحوا الشعر واستراحوا كثيرون، ساعة الاقرار أن الموهبة الشعرية لا تُغتصب، وانما هي هبة من الله. اوَيستغرب أن يكون حامل ريشة شاعراً في نثره، ناثراً في نظمه؟!

ولا شك في ان وقفات ميشال شيحا الكبرى تتّخذ لها من الوطن وسياسته العليا حقل تجارب ونتائج اسباب، فتغنّيه بهذا الوطن الصغير ليس له حدود، الى الغوص في مصائره بالعقلانية والحكمة والجدلية والاستشراف، متمنياً له المكانة والضمانة وتحسين الامور، وترسيخ صلاته مع الدول المحبة للسلام والحرية والنظام والعدالة ووضوح الرؤيا، بعيداً عن نزق المغامرة ونزعة التسلّط، علماً ان اتقان اللبنانيين لغات عدة الى جانب اللغة الأم يسهّل لهم التعاطي مع الخارج الذي يجهل العربية.

لميشال شيحا في علم الاقتصاد، الذي تمرّس به في انكلترا واستجلى غوامضه وأحاط بأصوله وفروعه، منزلة

ميشال شيحا، الرؤيوية الفذّة.

خوّلته خدمة اقتصاد وطنه في غير مجالٍ، فهو الذي أسس مصرف فرعون وشيحا في بيروت، وعُيّن في مجلس ادارة مصرف سوريا ولبنان، واعتبر حكماً في فض الخلافات التي كانت تحصل بين البلدين الشقيقين في عهده. وهو الى ذلك عربي النهج واللسان رغم ثقافته الغربية، يؤمن بأن تعدد الاديان ليس اداة تفرقة بين اللبنانيين إنما المصالح الشخصية الآنية هي التي تفرق بين شعب واحد. وكان يفخر بالمساواة التي تجمع بين طوائفه المتعددة المتنكرة للامتيازات الطائفية التي هي سرطان يرتعي جسد الحياة السياسية والاجتماعية.

أبى شيحا أن يكون الدين اتفاقاً في السماء واختلافاً على الارض، ولطالما ردّ على المغرضين الصيادين في الماء العكر – عبر جريدة Le Reveil الفرنسية، لمؤسسها اسكندر الخوري عام 1909 – بقوله إن البحر المتوسط بحضارته التي تفوق كل حضارة – على ما يرى المؤرخ العظيم ابن خلدون – يجمع بين اللبنانيين وسائر الشعوب الحية والمحيطة به.

ويوم صدرت الجريدة اليومية Le Jour لسان حال الحزب الدستوري، برئاسة الشيخ بشارة الخوري، وادارة شارل حلو، كانت منبر ميشال شيحا في نشر آرائه السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تركت أثرها في الكثيرين، ولا سيما في ميشال اسمر، الذي هبّ الى تأسيس الندوة اللبنانية Le Senacle Libanais فكانت همزة وصل بين الثقافتين العربية والفرنسية وميدان جهاد للاقلام الحرة، علماً ان العام 1972 شهد التحام Le Jour والـL'Orient فصارتا تصدران باسم واحد L'Orient - Le Jour.

ولمّا كانت سياسة ميشال شيحا مع الدولة الفرنسية سلمية الاتجاه كتصرفاته، وشبيهة بسياسة غاندي مع الانكليز في الهند وتصرفاته، عرف ميشال شيحا بغاندي لبنان. لكن بسبب صراع الدول الشرقية المنتدَبة في سبيل الحرية والاستقلال، ونمو الشعور القومي الدافع بها الى مراقي فجر جديد من العنفوان، طرأ على السياسة اللبنانية الفرنسية في بلادنا ما جهّم تلك السياسة، فذُكرت يومها محاولات ميشال شيحا في "الاوريان لوجور" لتهدئة الاجواء، مذكراً فرنسا بالصداقات الماضية التي تربطها بلبنان. لكن ثورة الجزائر وانتفاضة الغرائز فيها خنقت اصوات السلام، فتم القبض على رئيس البلاد وبعض الوزراء وسجنوا ليلة 11–12 تشرين الثاني 1943 وسيقوا الى قلعة راشيا للاقامة الجبرية فيها كسجناء.

وحاول المفوض السامي الفرنسي تشكيل حكومة بديلة من الحكومة المعتقلة فلم يُفلح، ثم تحركت سوريا ضد الفرنسيين فقوبلت منهم بدكّ بعض معالمها الوطنية بالمدافع، من دون ان تلين لها قناة او يتراجع مؤمنون بحقهم، فنهاية الاستعمار كانت قد دنت، وانبعثت الحرية من جديد، فأفرج عن المعتقلين في قلعة راشيا واعلن لبنان استقلاله في 22 تشرين الثاني 1943 وتمّ جلاء آخر جندي اجنبي عن لبنان في 31 كانون الاول 1946.

غير ان تلك الفرحة المشرقية الغامرة، لم تدم طويلاً، فما كاد البريطانيون ينسحبون من فلسطين حتى تم لليهود تأسيس دولة اسرائيل على الارض المغتصبة، وكان مما كتبه ميشال شيحا آنذاك ان قانون الغاب بدأ يسيطر على المنطقة.

وعندما اغتيل الكونت برنادوت الذي حاول ايجاد حل عادل للفلسطينيين الذين نزحوا عن بلادهم كتب ميشال شيحا في ما كتب:

"لقد سيطر الكذب والخداع والمكر على الشرق الادنى".

وكتب طويلاً عن الحرية التي يبطل مفعولها عندما تتجاوز حدودها الانسانية المشروعة، فهي لا تستقيم الا اذا كانت مسيّجة بالحكمة والعدالة والنظام والتعاليم الدينية السمحة.

ما كاد ميشال شيحا يدنو من ايامه الاخيرة على الارض، حتى بدأ صراع الطبقات يسود المجتمع، فكل شعب حاول تكييف العالم بحسب مفهومه ومعتقده، فانهارت المثل العليا واخذت الاخطار والتيارات السياسية تلوح في آفاق لبنان وتهدد مصير وطن يعتبر همزة وصل بين اوروبا وآسيا وافريقيا.

ورغم دنو ميشال شيحا من أجله، فقد نعم بما رأى من حَدْب الناس عليه، وكثرة المحيطين به، والمؤملين عودة العافية اليه، لكن القدر كان هناك ليحرم الكلمة في لبنان والمشارق من احد اسيادها، فرحل ميشال شيحا وهو في الرابعة والستين، وتم دفنه في مقبرة اللاتين ببيروت، فكانت لنعيه اصداء، ولرحيله ابعاد تتوالى، ولم يمض الكثير حتى ظهرت في لبنان "مؤسسة ميشال شيحا" بفضل مؤسسها ميشال اسمر.

واذا كان غياب ميشال شيحا في 29 كانون الاول 1954 قد حجبه عن الأنظار، فان تعاليمه ستظل ماثلة للعيان كلما هزّت لبنان المحن وتلاقت عليه المصاعب، فلئن كان موت هذا العبقري "قلعة تتساقط وقمة تنهار" – كما قال ميشال اسمر – "او تراباً يعود الى التراب ليبقى صوته الحي" – كما يقول خليل رامز سركيس – فنحن نقول:

كان ميشال شيحا هانئاً في حياته، بما اعطى الانسان والوطن والكلمة من اضواء، وكان هانئاً في مماته بما ترك للانسان والوطن والكلمة من تراث، فليهنأ في حياتيه.

لكأني بابن الفارض يعنيه بقوله:

حديثُهُ او حديث عنه يَطربني
هذا اذا غاب او هذا اذا حضرا